

بابل فی عہد نابونید آخر ملوکھا

أ.د. عید مرعی

جامعة دمشق – قسم التاريخ

بابل في عهد نابونيد آخر ملوكها

شهدت بلاد الرافدين في أواخر الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد تغيرات سكانية كبيرة تمثلت بدخول العديد من القبائل الآرامية إليها واستقرارها فيها. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد استطاعت بعض تلك القبائل تأسيس إمارات مستقلة أخذت مع الزمن تتنافس الممالك القديمة الموجودة سابقاً. ففي جنوب بلاد الرافدين، في بلاد سومر القديمة، استوطنت جماعات آرامية. عُرفت بالكلدانية، خضعت في البداية لنفوذ المملكة الآشورية الحديثة الذي لم يشمل بلاد الرافدين فقط، بل مناطق واسعة من الشرق القديم. ولكن بعد وفاة العاهل الآشوري الكبير آشور بانيبال Assurbanipal، ضعف النفوذ الآشوري بشكل كبير واستغل هذا الضعف نابو بولاصار Nabupolassar زعيم القبائل الآرامية الكلدانية في جنوب بلاد بابل، فاستولى على السلطة هناك، ونصب نفسه بشكل رسمي "ملك أكاد" أولاً في مدينة سيار ثم في بابل عام ٦٢٥ ق.م. ومع الزمن وطّد سلطته في كل بلاد بابل، ثم أسهم بالتحالف مع ملك مидية كياكسيريـس Kyaxeres (٦٢٥-٥٨٥ ق.م) في الإجهاز على ما بقي من الامبراطورية الآشورية الحديثة واحتلال العاصمة نينوى عام ٦١٢ ق.م، ثم حرّان آخر معقل آشوري عام ٦١٠ ق.م. فشملت مملكته (البابلية الحديثة أو الكلدانية) كل بلاد الرافدين تقريباً إضافة إلى عيلام.

خلف نابو بولاصار ابنه نبوخذ نصر الثاني Nabukadnassar II، الذي أوصل المملكة الكلدانية إلى أوج قوتها واتساعها وازدهارها. فقد قام خلال فترة حكمه الطويلة (٦٠٥-٥٦٣ ق.م) بحملات متعددة على سورية، أدت إلى القضاء على النفوذ المصري هناك وضم تلك المنطقة إلى مملكته. وأنجز على الصعيد الداخلي أعمالاً عمرانية متعددة، أشهرها ترميم السور المزدوج المحيط بمدينة بابل، وبناء سور آخر

طوله نحو ٧,٥ كم، وإقامة شارع المواكب وبوابة عشتار وما يعرف بحدائق بابل المعلقة، وإعادة بناء زقورة (برج) بابل وغيرها.

تسلم عرش بابل بعده ابنه أويل مردوك Awelmarduk الذي حكم عامين فقط (٥٦٢-٥٦٠ ق.م)، إذ تعرض للقتل على يد زوج أخته القائد العسكري نيرجال شار أوصور Nergalsharussur الطامع في السلطة، الذي اعتلى العرش بعده. كان هذا يملك مساحات واسعة من الأراضي، سواء حول مدينة بابل أو غيرها. وقد كرس معظم سنوات حكمه القليلة (٥٥٩-٥٥٦ ق.م) لإنجاز مشاريع سلمية، كترميم المعابد والقصور وحفر الأقبية.

أما على الصعيد العسكري، فقد في سنة حكمه الأخيرة حملة إلى كيليكية أعاد فيها إخضاع هذه المنطقة للنفوذ البابلي. غير أن تطوراً هاماً على الصعيد الديني حدث في عهد هذا الملك. فقد تمتع كهنة مردوك إله مدينة بابل، وهم من البابليين، بامتيازات كبيرة. وهذا ما أثار حقد ونقمة كهنة الإله سين Sin (إله القمر) في أور من الآراميين، والذين كانت تربطهم علاقات وثيقة مع كهنة سين في مدينة حرّان الخاضعة آنذاك للسيادة الميديّة. وارتبطوا أيضاً بعلاقات مع كهنة شماش (إله الشمس) في لارسا وسيبار. ويبدو أن صراعاً دينياً احتدم بين هذين الفريقين، كهنة مردوك وكهنة سين، للسيطرة على الحياة الدينية في بلاد بابل. ويمكن القول أن هذا الصراع كان نتيجة للتغيرات السكانية التي شهدتها تلك المناطق آنذاك. ومما ساعد على تأجيج هذا الصراع التناقضات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة. وبلغ الصراع أوجه عند وفاة نيرجال شار أوصور وانتقال السلطة إلى ابنه وولي عهده لاباشي مردوك Labashimarduk الصغير السن.

وجد كهنة سين وشماش في ذلك فرصة مناسبة للحساب وتحقيق مآربهم، فقاموا باغتيال الملك الجديد بعد ثلاثة أشهر من اعتلائه العرش (عام ٥٥٦ ق.م) ونصبوا نابونيد، الرجل الذي يتمتع بتقّتهم، ملكاً على بابل.

شخصية نابونيد^(١):

يعد نابونيد أكثر الشخصيات غموضاً وإثارة في قوائم ملوك بلاد الرافدين الطويلة. كان متقدماً في السن عند اعتلائه العرش (نحو ستين عاماً). لكنه كان متحمساً لأفكاره الدينية وسياسياً رزقياً اكتسب خبرة كبيرة من خلال شغله مناصب إدارية هامة في عهدي نبوخذ نصر الثاني ونيرجال شار أوصور. فكان على سبيل المثال مبعوث نبوخذ نصر عام ٥٨٥ ق.م لحل الصراع بين مملكتي ميديّة وليديّة، وذلك حسب المؤرخ الاغريقي هيرودت الذي يسميه لابينيتوس Labynetos^(٢) ويظهر في فصول لاحقة من "تواريخ" هيرودت بنفس الاسم كملك لبلاد بابل^(٣).

من المؤكد أن نابونيد لم يكن من أصل ملكي، وهذا ما يعترف به صراحة في كتاباته. وتتصف المعلومات المتوفرة عن أبيه نابو-بلاطسو-اقبي nabû-balatusu-igbi بأنها قليلة، وتشير إلى أنه كان والياً "شكناكو skakkanakku" وأميراً (روبو Rubû). وهذا يقود إلى الاستنتاج أنه ربما كان شيخ قبيلة بين شيوخ جماعات القبائل الآرامية الموجودة في بلاد بابل^(٤).

أما أمه فهي أدد جوبي Adad-gubbi التي مارست عليه تأثيراً "كبيراً". وكانت إحدى عابدات سين إله القمر من حران، وليست كاهنة له كما كان يعتقد سابقاً^(٥). ووجدت بعد احتلال المدينة من قبل الميديين (عام ٦١٠ ق.م) مع ابنها نابونيد ملجأ في بلاط بابل حيث دخل نابونيد في خدمة نبوخذنصر الثاني ونيرجال شار أوصور. وقد عمرت طويلاً، فكانت وفاتها عام (٥٤٧ ق.م) عن عمر يناهز مائة وأربع سنوات.

ورث عنها نابونيد اهتمامها الشديد بعبادة الإله سين إله القمر. ونتيجة لأصوله الحرانية، ولاهتمامه بنشر عبادة الإله سين، ولتسميته ملوك نينوى أسلافه الملكيّن، ولاستخدامه بعض ألقابهم، يرى بعض الباحثين إمكانية اعتباره آشورياً ومن نسل آشور بانيبال العاهل الآشوري الكبير^(٦). وللدفاع عن نفسه ضد الاتهامات التي

وجهت إليه عندما تسلم السلطة والقائلة انه معتصب ومصلح ديني، نجده يقول في إحدى كتاباته: "لاباشي مردوك الذي كان مايزال ابناً صغيراً (النيرجال شار أصور) نصب نفسه على العرش ضد رغبة الآلهة.... بناء على أمر مردوك سيدي رُفعت إلى حكم البلاد.... أنا المنفذ الشرعي (للسياسة) نبوخذ نصر ونيرجال شار أصور أسلافي الملوك، بينما أويل مردوك بن نبوخذ نصر ولاباشي مردوك بن نيرجال شار أصور....".

هنا للأسف يبدو النص غير كامل، ولكن المعنى يظهر واضحاً، الملكان اللذان خسرا العرش عن طريق ثورة كانا حاكمين ناكرين للآلهة.

أما نابونيد، فعلى عكسهما، أظهر تبجيله لمردوك إله المملكة الكبير بشكل واضح، وتصرف كالحامي الأمين لتقاليد سلفيه الكبيرين نبوخذ نصر الثاني ونيرجال شار أصور^(٧).

غير أن اهتمامه الشديد بعبادة الإله سين، وتركيز نشاطه العمراني على ترميم معابده أو إعادة بناء معابد له في حرّان (معبد إهْلَهْلُ E. hul. hul الذي دمره الميديون خلال حربهم مع الآشوريين) وفي أور، وتنصيب ابنته بيل - شالتي - نَنّار Bêl - shalti - nannar، حسب التقاليد البابلية القديمة، كاهنة كبرى في معبد سين في أور (عام ٥٥٤ ق.م)، واعتبارها عروساً ألهية لسين، جعل كهنة مردوك يرون فيه خطراً على الديانة التي يمثلونها، وتهديداً كبيراً لمصالحهم، واتهموه بعد هزيمته أمام قورش الملك الفارسي بالكفر وعدم عبادة أي إله، وعدم تأسيس أي معبد بعكس قورش الذي تم الترحيب به كمحرر ومنقذ.^(٨)

سياسته الخارجية:

لم ينفجر الصراع بين نابونيد وكهنة مردوك مباشرة بعد اعتلائه العرش. فسلطة الفريق المنتصر بقيت دون أن تُمس. واستطاع نابونيد أن يتابع سياسة أسلافه الملوك السابقين، وبخاصة الخارجية منها، دون أية عقبات أو مشاكل. فقد في سنة

حكمه الثالثة (٥٥٤/٥٥٣ ق.م) حملة ضد حماة، ونصب حيرام الثالث ملكا على صور، ووصل حتى غزة. وفي السنة التالية كان أيضا في سورية حيث جمع قواته هناك ودخل الصحراء العربية وحاصر أدومو Adummu، دومة الجندل، (الجوف حاليا على بعد نحو ٤٠٠ كم شرق العقبة)، وهي واحة هامة من واحات شمال شبه الجزيرة العربية، كان الآشوريون قد استولوا عليها في الماضي نظرا لأهميتها الاستراتيجية في المواصلات والتجارة^(٩).

وخلال الفترة ما بين ٥٥٦-٥٥٠ ق.م حاول نابونيد استغلال التطورات في مملكة ميديّة الواقعة إلى الشرق من بلاد الرافدين لصالحه، وذلك بتشجيعه قورش الثاني Cyrus II الأمير الفارسي الذكي والطموح على توسيع مملكة فارس والخروج على جده وسيدته ملك ميديّة. وكان الهدف من وراء ذلك إضعاف مملكة ميديّة التي كلنت تشكل قوة كبيرة في ذلك الوقت، واستعادة مدينة حران في أعالي بلاد الرافدين التي كانت تتمتع بأهمية اقتصادية وتجارية ودينية كبيرة آنذاك، فهي محطة هامة على الطريق ما بين بلاد الرافدين وآسية الصغرى، وما بين إيران وسواحل البحر المتوسط الشرقية. إضافة إلى كونها مركزا رئيسا من مراكز عبادة سين إله القمر، وهي مسقط رأس نابونيد الذي كان يحلم باسترجاعها وبإعادة بناء معبد سين فيها.

غير أنها كانت تخضع للميديين منذ عام ٦١٠ ق.م، ولم يكن بمقدور نابونيد وحده استعادتها. لذلك رأى في الفرس حلفاء له، فدعم زعيمهم قورش الثاني في ثورته على جده أستياغس Astyages ملك الميديين. حاول أستياغس القضاء على قورش الثاني فدعاه للمثول امامه في اقباتان (همدان الحالية). لكن هذا رفض مما اضطر أستياغس إلى تجريد جيش كبير والدخول في حرب مع قورش انتهت، بسبب خيانة قائد الجيش الميدي وانضمامه إلى قورش، بانتصار مؤزر لقورش، ووقوع أستياغس في الأسر. وهكذا وجد قورش نفسه في يوم واحد سيد المملكتين الفارسية والميديّة (عام ٥٥٠ ق.م).

هذا الحدث الهام في التاريخ، المعروف قبل وقت طويل عن طريق أعمال المؤرخين الكلاسيكيين (هيرودت ١٢٢-١٣٠ I وديودوروس الصقلي وسترابون). تذكره أيضاً النصوص المسمارية المعاصرة له. فنبونيد يخبرنا في إحدى كتاباته أن مردوك ظهر له في المنام، وأمره بإعادة بناء معبد سين ((هلهل = معبد الهلال) في حران. وعندما قال الملك أن حران في أيدي الميديين (Umman - manda) أجاب مردوك: "الأمان - ماندا الذين تتكلم عنهم، هم وبلادهم والملوك الذين بجانبهم لن يبقوا طويلاً. في السنة الثالثة القادمة سأجعل قورش ملك أنزان Anzan (أنشان، عيلام سابقاً) عبدهم الفتى يطردهم، بقواته القليلة، سيشتت الميديين المنتشرين بكثرة. هو (قورش) ألقى القبض على استياغس ((اشتوميغو Ishtumegu) ملك الميديين وأخذه أسيراً إلى بلاده (١٠).

يظهر من هذه الكتابة أن نابونيد يحاول أن يبرر وقوفه إلى جانب قورش بالادعاء أن مردوك هو الذي أوحى له بذلك من خلال التنبؤ بنصر قورش وهزيمة الميديين.

وهناك تقرير آخر أكثر دقة عن هذا الصراع، يرد في ما يدعى حولية نابونيد Nabonidos Chronicle: "الملك اشتوميغو استعد بقواته وسار ضد قورش ملك أنشان للقاء به في معركة. جيش اشتوميغو ضده وسلموه في القيود إلى قورش" (١١).

استغل نابونيد هذه الأحداث فبسط نفوذه على حران (٥٥٢ ق.م) مدينته الأم، وأخذ بإعادة بناء معبد سين فيها المهمل منذ أربعة وخمسين عاماً، وذلك بتسخير كل القوى والوسائل والامكانيات الموجودة. وربما هدف من وراء ذلك، بالإضافة إلى الهدف الديني، ربط الآراميين في أعالي بلاد الرافدين بالامبراطورية البابلية بشكل أكبر وتقوية الحدود الشمالية (١٢).

غير أن التحالف بين نابونيد وقورش الثاني لم يدم طويلاً. فبعد انتصاره على الميديين قاد قورش سلسلة من الحملات العسكرية الناجحة التي نتج عنها بعد عشر سنوات تكوين امبراطورية ضخمة لم يشهد العالم مثيلاً لها سابقاً.

كان هدفه الأول مملكة ليدية الواقعة على السواحل الغربية لآسية الصغرى حيث يحكم كروسوس Croesus (قارون في المصادر العربية) المشهور بغناه الخرافي. سار قورش بقواته، بعد اجتيازه هضبة أرمينية، على الطريق الذي يسير موازياً لسلسلة جبال طوروس عبر سهول الجزيرة عابراً دجلة أسفل نينوى ومتجهاً نحو الغرب عبر حرّان حتى وصل إلى كيليكية، المملكة التابعة لبابل، فاحتلها، خارقاً بذلك التحالف الذي عقده مع نابونيد، ومجبراً إياه على الوقوف إلى جانب مملكة ليدية وحليفها التقليدية مصر. ولكن لم يكن بوسع مصر ولا بابل إرسال قوات مساعدة إلى كروسوس الذي التقى قورش وحده في معركة بتيريوم Pteryum عام ٥٤٧ ق.م. وهُزم فيها. وقد أعقبها سقوط مدن أيونية اليونانية بيد قورش وخضوع آسية الصغرى بكاملها للحكم الفارسي.

اتجه قورش بعد ذلك بجيوشه نحو الشرق حيث أخضع ممالك شرق إيران، فرثية Parthia وآرية، وممالك صغدية Sogdia وبكترية Bactria في تركستان وأفغانستان. وأخضع أيضاً جزءاً من الهند. فامتدت الامبراطورية الفارسية بذلك من سواحل بحر إيجة في الغرب إلى هضبة البامير والهند في الشرق، وأصبح الصراع واقعاً لا محالة بينها وبين الامبراطورية البابلية الحديثة (الكلدانية) وعلى رأسها نابونيد.

الخروج من بابل والإقامة في تيماء:

ذكرنا سابقاً أن نابونيد قاد في سنة حكمه الثالثة حملة على حماة، وجمع في السنة التالية لها قوات في سورية ودخل الصحراء وحاصر أدومو (الجوف) ولكن غير معروف ما إذا كان قد عاد إلى بابل بعد هذه الحملة أو تابع زحفه على واحات أخوي في شمال شبه الجزيرة العربية، وذلك بسبب وجود كسر في اللوح المسماري الذي يتحدث عن ذلك.

غير أن مدونات سنوات حكمه من السنة السابعة حتى الحادية عشرة تذكر أن "الملك كان في تيماء". وتيماء^(١٣) واحة كبيرة في شمال غربي شبه الجزيرة العربية، كانت مركزاً دينياً كبيراً لعبادة إله القمر. وقد اتخذها نابونيد مقراً له بعد أن انتصر على أميرها ملكو Malku وقتله، ثم أعاد بناءها وشيد فيها مقراً له شبيهاً بقصره في بابل وأحاطها بسور. تذكر إحدى كتابات نابونيد في سنة حكمه العاشرة أن المؤونة كانت تنقل بواسطة الجمال من معبد في أوروك إلى نابونيد في أرض تيماء^(١٤). ويبدو أن خروج نابونيد إلى تيماء كان في السنة السادسة من حكمه^(١٥). يتحدث نابونيد في الكتابة المكتشفة في أطلال الجامع الكبير في حران عام ١٩٥٦، والتي هي أشبه بسيرة ذاتية عن ذهابه إلى تيماء وإقامته عشر سنوات هناك متقلاً بين غرب شبه الجزيرة العربية إذ يقول: (١٦)

"أنا نابونيد، ابن وحيد ليس له أحد. لم يكن في ذهني تسلم العرش الملكي. الآلهة والآلهات صلّوا من أجلي، ودعوني لتسلم الحكم. في الليل جعلني أرى حلماً" (قال لي فيه) ما يلي: "أهْلَهْلْ معبد سين في حران شَيْدُهُ بسرعة. أريد أن أعطيك كل البلاد في يد (ك). الناس، سكان بابل وبارسييا ونيبور وأور وأوروك ولارسا، الكهنة، أناس من مناطق سكن في أكاد أخطأوا في حق ألوهيته الكبرى وارتكبوا إثماً في عدم معرفة الغضب المخيف لملك الآلهة نَنَار Nannar (سين) نسوا طقوسهم وتكلموا كذباً وزوراً. ككلاب افترس بعضهم بعضاً. جعلت (الآلهة) مرضاً وجوعاً ينتشر بينهم. هو (سين) أنقص سكان البلاد. أما أنا فقد جعلني أهرب من مدينتي بابل، (وسلكت) الطريق إلى تيماء، دادانوا Dadanu (العلا حالياً)، باداكو Padakku (فدك حالياً)، خيريراً Chibra (خير)، يديخو Yadichu (يديع وهي الحويط في شرق حرة خير)^(١٧) حتى إلى يتريبو Yatribu (يثرب، المدينة المنورة) عشر سنوات تجولت ولم أدخل مدينتي بابل".

ولكن ما هي الأسباب التي جعلته يغادر بابل ويقيم في تيماء وغيرها من الواحات طيلة تلك الفترة الطويلة. هو نفسه يعطي سبباً لخروجه من بابل إلى تيماء

شقاق البابليين مع بعضهم وعقوبة الآلهة (أوسين) اللاحقة على ذلك والمتمثلة بالمرض والجوع. غير أن المعلومات المتوافرة لا تتحدث عن مثل هذا الوباء ومتى انتشر. فمعظم الوثائق الاقتصادية والقانونية المعروفة من العهد البابلي الحديث تعود إلى فترة حكم نابونيد. ويظهر الاقتصاد البابلي من خلالها مزدهرا بشكل غير عادي. مرة واحدة فقط تذكر مجاعة كانت دافعا لأرملة لتسليم ولديها إلى معبد أي أنا E anna، معبد الإله سين في أوروك. ويرقى تاريخ الوثيقة التي تذكر ذلك إلى السنة الحادية عشرة من حكم الملك نابونيد، والتي كان يوجد فيها بالتأكيد في شمال غربي شبه الجزيرة العربية. غير أنه يمكن أن نسمح لأنفسنا بالافتراض أنه تقبع خلف كلمات الملك حقيقة يجوز تفسيرها بشكل عكسي، وهي أن الملك نفسه كان مصابا بمرض (جنون أو جذام)، لذلك غادر بلاده إلى تيماء^(١٨).

من المستبعد أيضا أن تكون المجاعة والمرض وحدهما استوجبا رحيل الملك. فغير مفهوم تماما لماذا تحول في مناطق واسعة من شبه الجزيرة العربية حتى وصل إلى يثرب. إقامته قصيرة في تيماء كانت كافية، لذلك يجب علينا البحث عن أسباب أخرى لخروجه من بابل^(١٩)، علما أن تاريخ بلاد الرافدين بخاصة وتاريخ الشرق القديم بعامة لم يعرف مثيلا لهذه الظاهرة إذا لم نسمع عن ملك أو حاكم هجر عاصمته وانتقل ليقيم في مكان بعيد عنها.

يبدو أن الملك البابلي نقل نشاطه إلى شبه الجزيرة العربية، ربما لأنه لم تكن هناك إمكانية للقيام بغارات وحملات عسكرية في اتجاهات أخرى. فسورية كانت تخضع له، والانطلاق نحو الشمال غير ممكن بسبب وجود الفرس الذين ارتبط معهم باتفاق ما على يبدو. أيضا التوسع نحو الشرق لم يكن ممكنا لسبب نفسه. والطريق الوحيد المفتوح امامه كان باتجاه الجنوب الغربي، نحو شبه الجزيرة العربية.

هنا حاول نابونيد أن يكسب منطقة نفوذ جديدة له. ويبدو أقل احتمالا أن الملك البابلي كلن يريد كسب العرب إلى جانبه في حلف موجه ضد الفرس. فالجو العام الذي يصفه النص الذي يتحدث عن أعماله في تيماء يسود فقط في بلد محتل وليس في بلد

حليف، حيث يذكر أنه: "قتل أمير تيماء بالسلاح، ثم أخضع بلاده، وأجبر رعاياه على السخرة" كذلك القول: "الاخضاع تحت قدمي" يشير إلى عمل إذلال وتبعية وليس إلى الرغبة في كسب حلفاء (٢٠).

يمكن القول إن عوامل متعددة ساهمت في خروج الملك البابلي إلى تيماء. فانطلاقاً من حملة ضد العرب المهاجمين للبلاد بقصد السلب والنهب أخضع نابونيد الواحات الكبيرة في شمال غربي شبه الجزيرة العربية لسلطته واضعاً بذلك طرق التجارة الهامة تحت مراقبته. ففي منتصف القرن السادس قبل الميلاد، طغت الرمال على سواحل الخليج العربي بحيث أصبح من المتعذر على السفن البحرية أن تؤم ميناء أور في جنوب بلاد الرافدين. وكان ميناء خُدِيمِير Chudimir على الساحل الشرقي للخليج تحت المراقبة الفارسية، بينما كان نقل البضائع على الطريق البري بمحاذاة السواحل الغربية صعباً ومتعباً للغاية. وهكذا كانت المواصلات التجارية تتم بشكل أساسي على طريق الصحراء حيث تبدأ من الجراء على الخليج العربي مارة بالإحساء فالهفوف ثم بريدة وحائل عابرة تيماء باتجاه الغرب نحو مصر. وبما أن نابونيد يسيطر على تيماء التي كانت تشكل محطة هامة على هذا الطريق كان بإمكانه التحكم والاستفادة من عملية نقل وتبادل البضائع عليه، في الوقت نفسه أراد من خلال ذلك أن يمارس ضغطاً اقتصادياً على مصر لاجبار الفرعون المصري على إعادة النظر في سياسته اتجاه بابل (٢١). كذلك كانت تيماء محطة هامة على الطريق التجارية القادمة من الجنوب، من اليمن والحجاز والمتجهة شمالاً إلى دمشق، وتغني السيطرة عليها السيطرة على التجارة المارة على هذه الطريق. باستيلاء نابونيد على واحات شمال غربي شبه الجزيرة العربية وسع سلطته باتجاه الجنوب. وحاول بالتأكيد عبر ذلك حماية ظهره عند حدوث هجوم متوقع من الشرق، من قبل القوة الجديدة، الامبراطورية الفارسية. وقد فعل ذلك بطريقة تقليدية، هي الاخضاع وليس التحالف. إلى جانب ذلك يمكن أن تكون النية موجودة بعدم الرغبة في إضرار تار النعمة والمعارضة التي أشعلها تفضيله لإله القمر من حران وعبادته في بلاد بابل، ومن

ناحية أخرى العيش في بلاد تنتشر فيها عبادة أحد آلهة القمر^(٢٢). علماً أن عبادة إله القمر (سين، هلال، قمر، شهر) انتشرت في ذلك الوقت في أنحاء متعددة من المشرق العربي القديم مثل أور وحران وسيناء وتيماء وحضر موت.

على أي حال، أقام نابونيد في واحات شمال غربي شبه الجزيرة العربية نحو عشر سنوات ناب عنه خلالها في إدارة دفة الحكم في بابل ابنه وولي عهده بيل شلر أوصور (بيلشارصر في التوراة)، الذي كان قد أشركه معه في الحكم منذ سنة حكمه الرابعة. ونتيجة لغياب الملك توقفت أشهر وأهم احتفالات دينية في البلاد، وهي احتفالات رأس السنة (أكيتو) المكرسة للإله مردوك إله بابل الرئيس. وقد أدى ذلك إلى تزايد النقمة على الملك، وبخاصة من قبل كهنة مردوك الذين عبروا عن نقمتهم بشكل عملي، وذلك بالاتصال بقورش الثاني ملك الفرس، ودعوته، على ما يبدو، للقدوم إلى مدينتهم.

سقوط بابل بيد الفرس ونهاية حكم نابونيد:

بعد أن انتهى قورش الثاني من إخضاع كل المناطق المجاورة لامبراطوريته في الشرق والغرب اتجه بأنظاره إلى بابل حليفة الأمس، وأخذ يعد العدة لاحتلالها. ومما شجعه على ذلك الأوضاع المضطربة فيها، وبخاصة نقمة كهنة مردوك على مليكهم نابونيد المقيم بعيداً عن عاصمته في تيماء، الذين أقاموا علاقات سرية مع قورش وعدوه فيها بالمساعدة في حال ظهوره أمام أسوار مدينتهم. ومهدوا لقدمه بتمجيده بين سكان بابل كمحرر قادم سيعيد عبادة مردوك كما كانت. وحذا حذوهم أيضاً اليهود المهجرون إلى بابل منذ عام ٥٨٦ ق.م على يد نبوخذ نصر الثاني، الذين كانوا قد وصلوا إلى تأثير اقتصادي كبير في بابل. وأملوا من وراء مساعدتهم لقورش بالسماح لهم بالعودة إلى أورشليم (القدس) وإعادة بناء هيكلهم هناك^(٢٣).

كذلك كان للسياسة التي اتبعتها قورش في كل البلدان التي خضعت له، والقائمة على كسب ود السكان المحليين أكثر من إخافتهم للخضوع، وعلى الظهور كمحرر

ومعاملة أسراه برحمة واحترام وتشجيع العبادات المحلية والمحافظة على العادات والتقاليد السائدة، كان لها تأثير إيجابي في كل الشرق القديم. واعتقد كثير من البابليين انهم سيفقدون القليل فقط عندما يصبحون رعايا مثل هذا الملك. فظهرت كتابات على أسوار بابل تقول: "بابل ستكون غنيمة سهلة" (٢٤).

أجبر هذا الوضع المتأزم في بابل نابونيد على العودة إلى عاصمته حيث سمح بالاحتفال بعيد رأس السنة الجديدة (٥٣٩ ق.م) وبنفقات كبيرة، وذلك لتهدئة الوضع الداخلي وكسب رضا السكان. غير أنه قام في الوقت نفسه بنقل تماثيل الإله سين وابنه نوسكو Nusku وقرينتيهما في موكب احتفالي من العاصمة إلى حران، حيث افتتح معبد إلهل بأبهة كبيرة، ونصبت فيه مسلتان تحملان كتابة تتحدث عن أعمال نابونيد وتمجيده للإله سين. وقد عثر على هاتين المسلتين حديثاً كما ذكرنا سابقاً.

اعتقد نابونيد أن بإمكانه إيجاد مخرج للأزمة التي تعيشها البلاد، فأمر بنقل تماثيل الكثير من الآلهة البابلية إلى بابل (فقط كهنة بارسيبا وكوتا لم ينفذوا الأمر)، بغية إيقاظ الشعور الوطني والديني عند السكان وجعلهم يدافعون عن عاصمتهم ضد الغازي الأجنبي. غير أن كل هذه الإجراءات جاءت متأخرة، ولم توقف العد التنازلي الذي بدأ في حياة الامبراطورية البابلية الحديثة. فغياب الملك عن مملكته وما نتج عن ذلك من اهمال لشؤونها، وتفضيل عبادة سين جعل السكان يفقدون الثقة به وبأية إجراءات يتخذها، ويمتنعون عن الوقوف إلى جانبه في وجه الخطر الداهم.

بدأ قورش هجومه على بلاد بابل في خريف عام ٥٣٩ ق.م. كان نابونيد قد أمر ابنه وولي عهده بيل شار أوصور بنشر قواته على طول نهر دجلة في سبيل حماية العاصمة. لكن الفرس كانت لديهم الغلبة في العدد. والأسوأ من ذلك أن الحاكم المعين من قبل نابونيد في منطقة شرقي دجلة (غوتيوم القديمة، دبالى حالياً، وهو جوبارو Gobryas) Gubaru، وهو فارسي الأصل، والذي كان يجب أن يحمي الجناح الأيسر لجيش بيل شار أوصور، انتقل إلى صفوف العدو.

توصف الأحداث اللاحقة بالتفصيل في "حولية نابونيد": في شهر تشرينو (أيلول- تشرين أول) عندما هاجم قورش جيش أكاد في أوبيس Opis على دجلة. ثار سكان أكاد، لكنه (أي نابونيد) ذبح المشتبه بهم من السكان. في اليوم الرابع سقطت سيار دون قتال، نابونيد هرب. في اليوم السادس عشر دخل جوبارو حاكم غوتيوم وجيش قورش بابل دون قتال. بعد ذلك أُلقي القبض على نابونيد في بابل عندما عاد إلى (هناك). حتى نهاية الشهر أحاطت دروع غوتيوم ببوابات از اغيلا Esagila (معبد مردوك). ولم تنقطع الطقوس الدينية في معبد از اغيلا ولا في المعابد الأخرى، ولم تهمل أية مواعيد (أعياد واحتفالات دينية). في الثالث من أراخسمنو Arachsamnu (تشرين الأول- تشرين الثاني) دخل قورش بابل. عسلوج ضخم (نوع من النباتات) نشر أمامه. أعلن سلام لكل بابل. قورش أرسل تحيات إلى بابل كلها. جوبارو واليه عينه واليا على بابل. من شهر كيسليمو (تشرين الثاني- كانون الأول) حتى شهر آذار (آذار- نيسان) عادت آلهة أكاد، التي جلبها نابونيد إلى بابل، إلى معابدها^(٢٥).

يتضح مما تقدم أن قورش الثاني استولى على بلاد بابل دون مشقة تذكر، حتى أن العاصمة استسلمت له وفتحت أبوابها دون أية مقاومة. ومرد ذلك المعارضة الشديدة لحكم نابونيد التي تزعمها كهنة مردوك.

كان بيل شار أوصور قد لقي حتفه في معركة أوبيس^(٢٦). أما نابونيد، فحسب كزينوفون المؤرخ اليوناني، فقد حياته في بابل. غير أن بيروسوس (برحوشا)، المؤرخ البابلي المعروف من القرن الثالث قبل الميلاد، يذكر أن قورش عفى عنه ونفاه إلى كرمانية في بلاد فارس حيث قضى بقية حياته هناك^(٢٧).

أما بابل المدينة المحتلة فقد عاملها قورش باحترام عظيم، ولم تجر فيها أية عمليات نهب أو تخريب. وحياء كهنة مردوك كمحرر ومنقذ أرسله مردوك، واعترفوا به حاكماً شرعياً على بلادهم. وكمؤمن بأهورا مزدا "إله النور الرحيم" أقام قورش في بابل إدارة سليمة احترمت آلهة البلاد وسمحت بإعادة تماثيلها، التي أمر نابونيد بجلبها

إلى بابل خلال الحرب، إلى معابدها الأصلية. وحتى آلهة بلاد آشور التي أخذها الميديون أعيدت وأعيد بناء معابدها.

وسمح قورش لأعضاء الجماعة اليهودية المهجرة في بابل بالعودة إلى أورشليم (القدس) وإعادة بناء الهيكل. وتتحدث التوراة عن ذلك معتبرة أن "يهوه" بارك قورش وأرسله لتخليص اليهود المهجرين في بابل من الأسر (أشعيا ٤٤: ٢٤-٢٨).

لم يُدخل قورش الثاني أية تعديلات على الحياة في بابل، واعتبر نفسه خليفة للحكام المحليين، وتلقب بألقابهم، سار إلى بابل بأمر من الإله مردوك لإنقاذ المدينة من النقمة التي حلت بها. لذلك تقبل البابليون حكمه برضى. وهذا ما يعبر عنه نص باللغة الأكادية نُقش على أسطوانة طينية تعرف باسم "أسطوانة قورش" (٢٨).

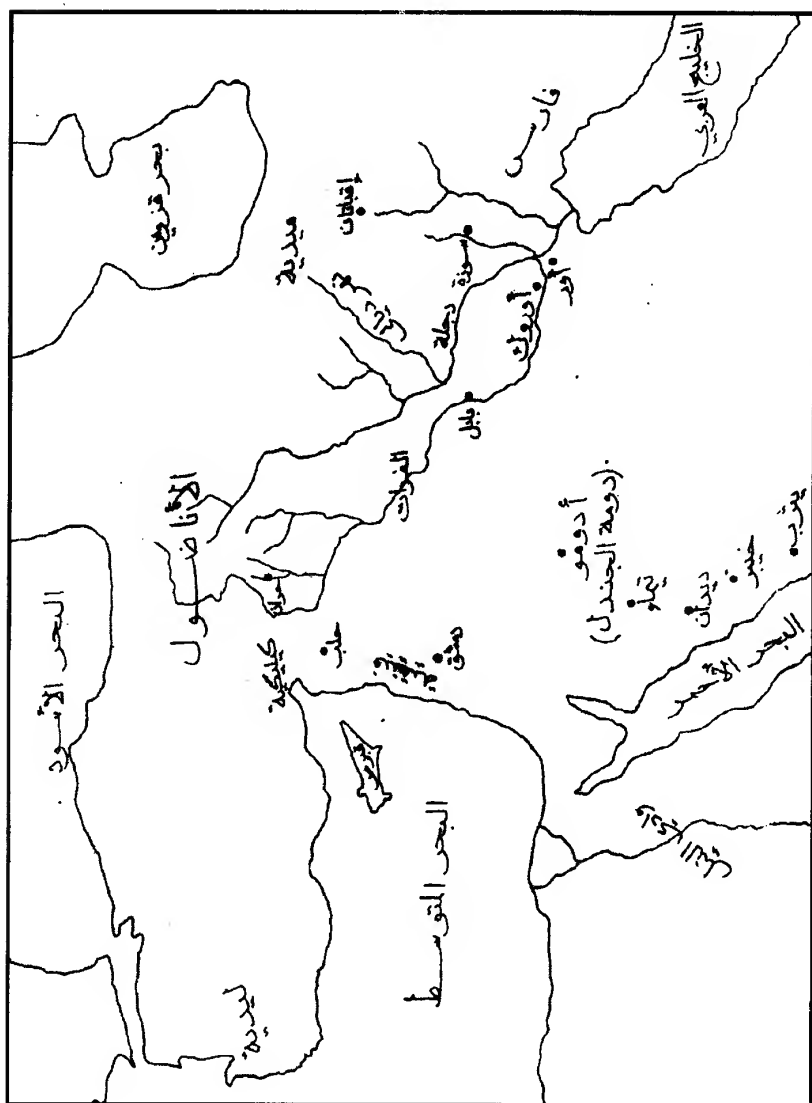
"عبادة مردوك ملك الآلهة محا من وجدانه (المقصود نابونيد) هو كان يفعل دائماً ما هو سيء لمدينته.... رعاياها أهلكهم جميعاً دون رحمة، لشكواهم غضب مردوك غضباً شديداً... الآلهة الذين سكنوا فيهم غادروا أماكن سكناهم. جلبهم، على الرغم من غضبهم، إلى بابل. مردوك... إلى كل الأماكن التي مساكنها متداعية، وإلى سكان سومر وأكاد الذين أصبحوا يشبهون الجثث عاد بوجدانه ووسع رحمة. فتش كل البلاد وفحص، وبحث عن حاكم عادل حسب ما يرغب قلبه، أمسكه بيده: قورش ملك أنشان دعاه لحكم الكون ونطق باسمه. غوثيوم وكل الميدين أخضعهم تحت أقدامه. الناس من ذوي الرؤوس السوداء (المقصود سكان بلاد بابل) الذين قهرهم بيديه حفظهم بحق وعدالة. مردوك السيد الكبير الذي يعتني برعاياه نظر فرحاً إلى أعماله الطيبة وإلى قلبه العادل. أمره أن يذهب إلى مدينته بابل، وجعل الطريق إلى بابل يُشق أمامه. كصديق ذهب معه. قواته الكثيرة التي عددها مثل ماء النهر لا يقاس زحفت مدججة بالأسلحة برفقته. بدون قتال وبدون معركة جعله (مردوك) يدخل مدينته (مدينة مردوك) بابل. أنقذ بابل من الضيق. وسلمه نابونيد الملك الذي لم يعده. سكان بابل جميعاً وكل بلاد سومر وأكاد، أمراء وولاة ركعوا أمامه (أي أمام قورش) وقبلوا قدميه، وفرحوا بتسلمه الملكية، وأضاءت وجوههم. السيد الذي عن طريق مساعدته

جعل الأموات أحياء وأبهج الجميع عوضاً عن الضيق والشر بايعوه بسرور وعبدوا اسمه.

أنا قورش ملك امبراطورية العالم. الملك الكبير، الملك القوي، ملك بابل، ملك سومر وأكاد، ملك جهات العالم الأربع، ابن قمبيز الملك الكبير، ملك أنشان، حفيد قورش (الأول) الملك الكبير، ملك أنشان، سليل تاياسبس Teispes الملك الكبير، ملك أنشان، النسل الأبدي للملكية، الذي أحب حكمه بيل (المقصود مردوك) ونابو (إله الكتابة والكتاب)، والذي تمنى لحكمه الملكي أن يُريح قلوبهما.

عندما دخلت سلمياً إلى بابل أقمت وسط تهليل وفرح مقر الحكم في قصر الحاكم. مردوك السيد الكبير لي القلب الواسع.... من بابل... يوماً بيوم اهتمت بعبادته. قواتي الكثيرة اخترقت بابل سلمياً. لم أدع أي مضايق في كل بلاد سومر وأكاد. مدينة بابل وكل معابدها حافظت عليها جيداً. سكان بابل الذين، بعكس إرادة الآلهة نير لا يليق بهم... جعلتهم يرتاحون من عنائهم، ورفعت عنهم السخرة. سُرّ مردوك السيد الكبير من أعمال الطيبة وباركني برحمة، أنا قورش الملك الذي عبده، وكذلك قمبيز ابني من صلبي، وكل قواتي. بخير وسرور مشينا أمامه. بناء على أمره العظيم جلب لي كل الملوك الذين يجلسون على عروش كل جهات العالم من البحر الأعلى وحتى البحر الأدنى، الذين يسكنون في جهات بعيدة، كل ملوك الأمور الذين يسكنون في خيام، جزيثهم الثقيلة، وقبلوا قدمي في بابل. من نينوى وأشور وسوزة وأكاد وأشنونا وزمبان Zamban وميتورنو Meturnu ودير حتى منطقة غوتيوم، المدن التي على الطرف الآخر من دجلة، والتي بيوتها كانت متداعية منذ القدم، الآلهة المقيمة هناك أعدتها إلى أماكنها، وجعلتها تدخل مسكناً دائماً. كل سكانها جمعتهم وأعدتهم إلى أماكن سكنهم. وآلهة سومر وأكاد التي جلبها نابونيد لإغضاب سيد الآلهة، بناءً على أمر مردوك السيد الكبير، جعلتها تتخذ في معابدها المكان الذي يُفرح قلبها".

على الرغم مما قد يبدو من مبالغة في هذه الكتابة، فإن الحياة اليومية في بلاد بابل سارت قدما في ظل الحكم الفارسي دون أي تغيير يذكر، وبخاصة في مجال العبادات والطقوس المحلية. ولم تطرأ أي تغييرات على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. تشهد على ذلك الوثائق المكتشفة التي تعود إلى تلك الفترة. أما على الصعيد السياسي فإن سقوط بابل بيد الفرس كان نقطة تحول تاريخية هامة، ليس في تاريخ منطقة بلاد الرافدين فقط، بل في تاريخ المشرق العربي القديم ككل. إذ شكل بداية قرون طويلة من الخضوع للقوى الأجنبية المحتلة.



ثبت المصادر والمراجع والمحواشي

- ١- نابونيد أو نابونائيد Nabû – na`id اسم أكادي يعني: "مُجَلُّ نابو"، ونابو: هو إله الكتابة والكتاب في بابل. ويدعى نابونيد عند الإغريق نابونيدوس Nabonidos.
- 2- Herodot, **Historien**, 1- 74.
- 3- **Ibid.** 1- 77, 88.
- 4- Labat, R., in: Fischer Weltgeschichte 4, **Die Altorientalischen Reiche III Die Erste Hälfte des I. Jahrtausends**, Frankfurt a.m. 1967, s. 103.
- 5- Röllig, W., **Erwägungen zu neuen Stelen König Nabonids**, in: Zeitschrift für Assyriologie, Neue Folge, Band 22 (Band 56), s. 236.
- 6- Schmökel, H., **Geschichte des Alten Vordensien**, Leiden 1957, s. 317; Von Soden, W., **Hersher im Alten Orient**, Berlin, Göttingen- Heidelberg 1954, s. 146.
- 7- Labate, R. **Op. Cit.**, s. 103.
- 8- Schmökel, H., **Op. Cit.**, s. 318.
- 9- Labat, R., **Op. Cit.**, s. 105; Roux, G., **Ancient Iraq**, London, 1980. P. 3. 356.
- 10- Roux, G., **Op. Cit.**, p. 355.
- 11- **Ibid.**
- 12- Röllig, **Op. Cit.**, s. 260.

١٣- إن أقدم كتابة يرد فيها اسم تيماء هي الكتابة المسمارية التي تعود إلى زمن الملك الآشوري نيجلات بيليسر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م)، والتي وردت فيها أسماء المدن والقبائل العربية التي دفعت له الجزية، ومنها تيماء Tema. أنظر: صبحي أنور رشيد، العلاقات بين وادي الرافدين وتيماء، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، الرياض ١٩٨٤، بإشراف د. عبد الرحمن الأنصاري، ص ٣٨٧.

١٤- المرجع السابق ص ٣٨٧.

15- Röllig, W., **Op., cit., s.**, 244.

16- **Ibid., s.** 224.

١٧- صبحي أنور رشيد، المرجع المذكور، ص ٣٨٨.

18- Röllig, W., **Op. Cit., s.** 245.

19- **Ibid., s.** 246.

20- **Ibid., s.** 251.

21- Labat, R., **Op. Cit., s.** 109.

22- Röllig, W., **Op. Cit., s.** 252.

23- Schmökel, H., **Op. Cit., s.** 318.

أورشليم Urushalem تسمية كنعانية قديمة لمدينة القدس، وتعني: "مدينة السلام" أو "مدينة (الإله) شليم (أو سليم). علماً أن الإله شليم هو إله الغروب عند الكنعانيين، انتشرت عبادته في فلسطين منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد. انظر: كتابنا: تاريخ بلاد الرافدين، دمشق ١٩٩١، ص ١٢٠، هامش ٧٤.

24- Roux, G., **Op. Cit., p.** 357.

25- **Ibid., p.** 357; Borger, R., in: **Texte aus der Umwelt des alten Testaments, Band I,**

lieferung 4, Historisch – chronologische Texte I,
Guterloh 1984. s. 404.

٢٦- تذكر التوراة في سفر دانيال، الأصحاح الخامس، أسطورة عن موت بيل
شار أو صور مغايرة لما هو معروف من المصادر المسمارية.

27- Labat, R., **Op. Cit.**, s. 110; Burstein, S.M., **The
Babyloniaca of Berossus**, Malibu 1978, p. 28.

28- Borger, R., **Op. Cit.**, s. 408 ff.

